هدية المقوقس للنبي ﷺ

قال الواقدى : كانت هدية المقوقس ألف مثقال من الذهب، وجارتين وهما مارية وشيرين [1] أختها .

وجارية أخرى يقال لها حسنة، وغلام خصى يقال له نابور، وبغلة يقال لها الدلدل ، وحمار يقال له عفير ، وقيل يعفور، وكسوة من بياضات مصر ، وعسل نحل من عسل بنها.

فلما وصلت الهدية إلى رسول الله ﷺ قبلها ونظر إلى مارية وأختها شيرين فأعجبتاه ، وكره الجمع بينهما.

ثم عرض الإسلام عليهما ، فأسلمت مارية قبل شيرين فاختار النبى ﷺ مارية على شيرين ، وتسرى بها فجاءه منها إبراهيم، فعاش ثمانية عشر شهراً ومات .

فقال رسول الله ﷺ :" لو بقى إبراهيم ما تركت قبطياً إلا وضعت عنه الجزية"[2].

وعاشت مارية إلى سنة خمس عشرة من الهجرة ، وماتت بالمدينة [3].

1- يروى أن اسمها سيرين ، وذكر صاحب السيرة الحلبية أن الجارية الأخرى اسمها قيسر . (السيرة الحلبية ٢٩٧/٣) .

2- روى عن ابن عباس قال : لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ قال :" إن له مرضعا فى الجنة ، ولو عاش لكان صديقا نبيا ، ولو عاش لعتقت أخواله القبط وما استرق قبطى ". (سنن ابن ماجه ٤٨٤/١).

٣- مارية القبطية : توفيت فى المحرم سنة ست عشرة من الهجرة ، صلى عليها عمر ﷺ ، وقبرها بالبقيع . (السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ص ص ٢٥٢-٢٥٣).

أما شيرين وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت ، فهى أم ولده عبد الرحمن، وقيل بل وهبها لمحمد بن مسلمة الأنصارى ، وأما حسنة وهبها رسول الله ﷺ لأبى جهم بن حذيفة العبدى[1].

وأما نابور فإنه كان قرابة لمارية ، وكان كثيراً ما يدخل عليها ، فوقع فى نفس النبى ﷺ منه شئ ، فرجع فلقيه عمر بن الخطاب فأخبره بذلك ، فأخذ عمر السيف ودخل على مارية فأهوى ليضرب نابور به ، فكشف عن ثيابه فإذا هو خصى، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فطابت نفسه [2].

وأما البغلة والحمار فكانا أحب دوابه إليه ، وأما العسل أكل منه فاستطيبه فسأل " من أين هذا العسل " ؟

فقيل له : " من قرية من قرى مصر يقال لها بنها ".

فقال : " بارك الله فى بنها وفى عسلها ".

وأما الثياب البيض فإن بقى عنده منهم بقية ، حتى إنه كُفن ﷺ فى بعضها .

قال الواقدى : إن المقوقس بعث رسوله مع الهدية حتى نظر إلى خاتم النبوة بين كتفى رسول الله وأخبر المقوقس بذلك .

1- ورد أنه ﷺ أهدى إحدى الجاريتين لأبى جهم بن قيس العبدى ، فهى أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر ، وأخرى أهداها لحسان بن ثابت.(السيرة الحلبية ٢٩٧/٣) .

2- أورد ابن كثير فى(البداية والنهاية ٢٦٧/٤) أن الذى دخل على نابور هو على بن أبى طالب ﷺ .

وذكر الأصبهانى أنه على بن أبى طالب ﷺ ، وذلك من رواية ابن إسحاق ، وقال الأصبهانى هذا غريب، لا يعرف مسندا بهذا السياق إلا من حديث محمد بن إسحاق.(حلية الأولياء ١٧٧/٣- ١٧٨).

وأورد محب الدين الطبرى " ت ٦٩٤ هـ " فى رواية عن الزهرى عن أنس بن مالك ﷺ: كانت أم إبراهيم سرية النبى ﷺ فى مشربتها ، وكان قبطى يأوى إليها ويأتيها بالماء والحطب ، فقال الناس فى ذلك : علج يدخل على علجة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل على بن أبى طالب ﷺ ، فوجده على نخلة ، فلما أخذ السيف وقع فى نفسه فألقى الكساء الذى كان عليه وتكشف ، فإذا هو مجبوب* ، فرجع على ﷺ إلى النبى ﷺ فأخبره.(السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ص ص ٢٤٩- ٢٥٠).

* مجبوب : أى مقطوع الذكر . (لسان العرب ١/ ٢٤٩).

وذكر صاحب السيرة الحلبية أن الغلام اسمه " مأبور " ابن عم مارية.(السيرة الحلبية ٢٩٧/٣).

فى حين أن ابن إياس ينقل رواية أخرى ويذكر أنه عمر بن الخطاب... !!.

الفتح الإسلامى لمصر*

قال ابن عبد الحكم : لما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة، وفتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مدينة دمشق ، قام إليه عمرو بن العاص وقال له : " يا أمير المؤمنين أتأذن لى أن أسير إلى مصر"؟.

قال عمر : " إن فتحتها كانت قوة للمسلمين ".

فلم يزل عمرو يهون فتحها عند أمير المؤمنين عمر، حتى عقد له على أربعة آلاف رجل أو دون ذلك.

ثم قال لعمرو بن العاص : " سر وأنا مستخير الله فى أمرك" .

فسار عمرو فى جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس، فسار حتى نزل بين رفح والعريش ، فلما نزل بها أخرج كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقرأه على المسلمين وقال لهم : " ألستم تعلمون أن هذه القرية من قرى مصر"؟.

قالوا : " بلى ".

---

* -" كانت مصر حين ظهور العرب على مسرح التاريخ طعمة للغزاة الفاتحين منذ قرون كثيرة ، قد استولى الإسكندر عليها فى سنة ٣٣٢ ق . م ، وطرد الفرس منها وأقام مدينة الإسكندرية فيها ، ثم نادى أحد قواده بطليموس سوتر بنفسه ملكا عليها فى سنة ٣٠٤ ق . م ، وملكت أسرة البطالمة مصر مدة ٢٧٤ سنة ، وكان آخر من تولوا أمور مصر من تلك الأسرة الملكة كليوباترة الشهيرة ، ولما هزم أكتاليوس كليوباترة وأنطونيوس فى معركة أكسيوم " أكتيوم " فى سنة ٣٠ ق . م ، أصبحت مصر ولاية رومانية ، ولما قسمت الدولة الرومانية على أثر وفاة ثيودوز فى سنة ٣٩٥ م كانت مصر من نصيب دولة الشرق الرومانية ، وظلت مصر تابعة لهذه الدولة حتى سنة ٦٤٠ م ، أى السنة التى فتحها العرب فيها ". (حضارة العرب ص ٢٠٥).

قال : " فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر بأن أرجع ، وقد خاف على المسلمين، وإن لحقني كتابه حتى أدخل مصر فإنني أدخلها ، فامضوا على بركة الله تعالى ، فسار عمرو حتى دخل مصر [1] .

فلما بلغ المقوقس دخول العرب إلى مصر ، فأرسل جيشاً إلى عمرو بن العاص فتلاقى مع جيشه على الفرما [2] - وهي من قرى مصر- فوقع هناك قتال شديد ، وهو أول قتال وقع في قرى مصر.

ثم إن عمرو أقام يحاصر أهل الفرما نحو شهر ، ففتح الله على يده الفرما ، وهي أول قرية فتحت على يد عمرو بن العاص[3].

فقال المقوقس : " ألا تعجبون من هؤلاء العرب يقدمون على جيوش الروم مع كثرتهم وهم في قلة من الناس " ؟.

فأجابه بعض القبط وقال :" إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى جيش إلا استظهروا عليه وغلبوه ".

1- هناك روايات عديدة في هذا الشأن ، ويقال أن عمر بن الخطاب ﷺ كتب إلى عمرو بن العاص بعدما فتح الشام أن انتدب الناس إلى المسير معك إلى مصر ، فمن خف معك فسر به ، وبعث به مع شريك بن عبدة ، فندبهم عمرو فأسرعوا إلى الخروج مع عمرو .(الخطط المقريزية ٢٨٩/٢).

2- الفرما : هي قرية أم إسماعيل بن إبراهيم ، وكانت مدينة خصباء وبها قبر جالينوس الحكيم ، بنى بها المتوكل على الله حصنا على البحر ، تولى بناءه عنبسة بن إسحاق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين ولما بنى حصن دمياط وحصن تنيس وأنفق فيها مالا عظيما ، ولما فتح عمرو بن العاص عين شمس أنفذ إلى الفرما أبرهة بن الصباح ، فصالحه اهلها على خمسمائة دينار هرقلية ، وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم .
قال اليعقوبي الفرما أول مدن مصر من جهة الشمال .(المرجع السابق ٢١١/١) .
قال الإصطخري : "الفرما على شط البحيرة ، وهي مدينة صغيرة خصبة ، وبها قبر جالينوس اليوناني ، ومن الفرما إلى تنيس نحو فرسخين في البحيرة " بحيرة تنيس : المنزلة " ".(المسالك والممالك ص ٤٢).
والفرما الاسم العربي للمدة بلوزيوم. (طريق الفتح الإسلامي لمصر ص ٣٨).

3 - " فلما ملك العرب الفرما صار في أيديهم معقلاً يؤمن لهم الطرق المؤدية إلى بلادهم ، ويضمن لهم سبيل الرجوع إذا نزلت بهم هزيمة ، وقد قطنوا بعد فتح الفرما إلى ما هم مقبلون عليه من الأمر الخطير إذا أتيح لهم فتح حصن بابليون والإسكندرية العظيمة.(فتح العرب لمصر ص ١٨٧).

ثم إن عمرو وصل إلى بلبيس [1] فتقاتل مع أهلها نحو شهر فغلبهم وملكها ، ثم إن عمرو أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بأن يستمده بالعساكر فأمده بأربعة آلاف أخرى ، فبقى معه ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه من العساكر حتى نزل على الحصن ، وهو مكان قصر الشمع [2] فصار من بالمدينة قائماً بحصارهم مدة طويلة ، فلما أبطأ خبر الفتح على أمير المؤمنين عمر فأمد عمرو بأربعة آلاف أخرى [3] وفيهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد رضى الله عنهم أجمعين [4] فنصب عمرو بن العاص منجنيقاً ورمى به على أهل الحصن.

وكان فى الحصن علج [5] من علوج الروم ، يقال له الأعرج، فقال لمن حوله :" إذا مر عليكم عمرو أمير القوم فألقوا عليه صخرة فتقتله " ، فمر عليهم عمرو ، فحالوا

1- تقدم ذكرها فى " أعمال الديار المصرية وكورها " ص ٣٠.
2- تقدم ذكره فى " دولة الأقباط بمصر " ص ٤٥ .
3- فأصبح عدد جند المسلمين اثنا عشر ألفا .
4- من أصحاب النبى ﷺ :
أ- الزبير بن العوام : ذكره الذهبى فيمن توفى فى سنة ست وثلاثين : وهو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب ، حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته صفية وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أهل الشورى شهد بدرا والمشاهد كلها ، أسلم وهو ابن ست عشرة سنة ، وكان من السابقين إلى الإسلام، وهو أول من سل سيفه فى سبيل الله.(تاريخ الإسلام ١٩٧/٢).
ب- المقداد بن الأسود : توفى سنة ثلاث وثلاثين " كان من السابقين الأولين شهد بدرا، وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ :" أمرنى الله بحب أربعة : على وأبى ذر وسلمان والمقداد " رواه أحمد فى مسنده ، قيل : إنه مات بالجرف على ثلاثة أميال من المدينة ودفن بالبقيع.(المرجع السابق١٦٤/٢).
قال ابن الجوزى :" توفى المقداد ابن سبعين " (أعمار الأعيان ص ٤٧).
ج- عبادة بن الصامت : توفى سنة أربع وثلاثين ، " أحد النقباء ليلة العقبة ، شهد بدرا والمشاهد ، وولى قضاء فلسطين وسكن الشام. (تاريخ الإسلام ١٦٥/٢).
د- مسلمة بن مخلد : توفى سنة اثنين وستين ." ولد عام الهجرة ، وسمع من رسول الله ﷺ ، وشهد فتح مصر ، وولى الجند بها لمعاوية ويزيد ، ومات فى ذى القعدة من هذه السنة ". (البداية والنهاية ٢٠٥/٨).تولى مسلمة على مصر ، وذكر المقريزى أن ولايته كانت خمس عشرة سنة وأربعة أشهر ". (الخطط المقريزية ٢/ ٣٠١).
5- العلج : حمار الوحش السمين ، والرجل من كفار العجم ، والجمع علوج وأعلاج.(القاموس المحيط ٢٠٠/١).
وأورد ابن عبد الحكم اسمه بالأعيرج ، وكان قد تحلف فى الحصن بعد المقوقس. وجاء فى هامش نسخة أ : الأعيرج يقال له المدفور القبطى ، كان يدبر مصر من قبل المقوقس ، وهو جورج قائد حرس الحصن ، وقد بقى فى الحصن حتى يقضى على ما يشاع من خروج فيرس (فتوح مصر والمغرب ١/ ٩٦ وهامش ٣ من الصفحة).

بينه وبين أصحابه، فقال لهم عمرو :أنا أصغر من فى القوم ، ولا يضرهم قتلى إن قتلتمونى، فقال الأعرج فى نفسه :" وإيش يفيد من قتل واحد من جماعة كثيرة " ؟.

فأمر بإطلاقه فخرج إلى أصحابه سالماً ، ولم يعلم الأعرج أنه أمير القوم ، وكانت هذه الحيلة التى دبرها عمرو أول المكائد منه .

ثم إن الزبير بن العوام ﷺ وضع سلماً إلى جانب السور من ناحية سوق الحمام وصعد عليه[1] ، وأمر أصحابه إذا سمعوه يكبر فيزحف العسكر جميعاً .

فلما صعد الزبير على السلم وكبر والسيف فى يده ، فزحف الجيش جميعاً ، وكبروا فما شك من بالحصن أن العرب قد اقتحموا الحصن فهربوا من وجه العرب، فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن وفتحوه [2] .

فلما بلغ المقوقس ذلك خاف على نفسه من القتل ، فتوجه إلى الجزيرة - يعنى الروضة - وأرسل إلى عمرو يسأله فى الصلح وأن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رأس ، فأرسل عمرو يقول للمقوقس: " ليس بينى وبينك إلا ثلاث خصال : إما تدخل فى الإسلام ، وإما تعطى الجزية وتكون آمناً على نفسك من القتل ، وإما تقاتلنا ونقاتلك ".

قال الليث بن سعد . أقام عمرو بن العاص يحاصر الحصن ستة أشهر.

---

1 - قال ابن عبد الحكم : حدثنا سعيد بن عفير قال : وصعد مع الزبير الحصن محمد بن مسلمة، ومالك بن أبى سلسلة السلامى ، ورجال من بنى حرام ، وأن شرحبيل بن حجية المرادى نصب سلما آخر من ناحية الزملرة ، فصعد عليه ، فكان بين الزبير وبين شرحبيل شئ على باب أو مدخل ".(فتوح مصر والمغرب ١/ ٩٥).

2- ذكر المقريزى فى فتح الحصن " أن المسلمين لما حاصروا باب إليون كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس فقاتلوهم شهرا، فلما رأى القوم الجد من العرب على فتحه والحرص ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه ، خافوا أن يظهروا عليهم ، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلى ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة ، وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل". (الخطط المقريزية٢/٢٩٠).

فلما جاءت رسل عمرو إلى المقوقس بهذا الجواب قال لمن حوله من القبط : " كيف رأيتم فى هذا الأمر " ؟.

قالوا : " إن هؤلاء القوم لا طاقة لنا بهم ، فإن الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، وليس لأحدهم فى الدنيا رغبة. يجلسون على التراب وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا يعرف السيد من العبد ، فإن لم تغتنموا صلحهم وهم محصورون فلم يجيبونا بعد ذلك إلى الصلح ".

ثم إن المقوقس أرسل إلى عمرو يقول له : " أرسل إلينا أحداً من عقلائكم حتى نتكلم معه ما يكون فيه أمر الصلح بيننا وبينكم ".

وكان المقوقس فى الجزيرة وهى الروضة ، وكان بها قصر مطل على البحر يسمى الهودج تتنزه فيه ملوك مصر من القبط.

فبعث إليه عمرو بن العاص عشرة من الصحابة ، وكبيرهم عبادة بن الصامت ، وكان أسود اللون ، وقيل المقداد بن الأسود[1] .

فلما دخلوا على المقوقس استصغر قدر عبادة بن الصامت لسواده فقال المقوقس : " نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى " فقالوا : " هذا الأسود أفضلنا وهو سيدنا " .

فقال المقوقس لعبادة : " تقدم يا أسود وكلمنى برفق ، فإنى أهاب سوادك "

1- قال ابن عبد الحكم :" بعث عمرو بن العاص عشرة نفر ، أحدهم عبادة بن الصامت ، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم " (فتوح مصر والمغرب ١/ ٩٧-٩٨).

فتقدم عبادة إليه وقال : " قد بعثنا الأمير عمرو على إحدى الثلاث خصال المقدم ذكرها ولا تم لها وجه رابع "[1].

فقال المقوقس : " إن عساكر الروم ما لا يحصى عددهم ، وأنا أخشى أن يقع بينكم القتال فيقتلونكم عن آخركم ، وقد طابت أنفسنا أن نصالحكم صوناً لنا ولكم من القتل ، على أن نفترض أن يكون لكم على كل رأس من القبط ديناران ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها ، وترحلوا عنا إلى بلادكم قبل أن تحاط بكم عساكر الروم ".

فقال له عبادة بن الصامت :" يا هذا أما تخويفك لنا بعساكر الروم من القتال فنحن أرغب ما يكون في قتالهم ، فإن ظفرنا بكم فلله الحمد ، وإن ظفرتم بنا فنحن أشوق إلى لقاء الله تعالى والمسير إلى الجنة ، وأما ما ذكرته من المال فنحن قوم لا نبالي بالمال إن كثر ولا إن قلّ ".

فقال المقوقس :" أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال "؟.

فقال عبادة :" لا ورب السماء والأرض ، فاختاروا لأنفسكم منهم خصلة ".

فالتفت المقوقس لمن حوله من الأقباط وقال لهم : " قد فرغ القول منهم فماذا ترون في دلك " ؟.

فقالوا : " أما الدخول في دينهم فهذا لا يكون أبداً ، وأما أنهم يسبوننا ويجعلوننا لهم عبيداً ، فالموت أهون علينا من ذلك" .

فقال المقوقس لعبادة : " قد أبى القوم من ذلك فما ترى " ؟.

1- هناك حديث طويل دار بين عبادة بن الصامت رضي الله عنه والمقوقس أورده ابن عبد الحكم. انظر (فتوح مصر والمغرب ٩٨/١ - ١٠١).

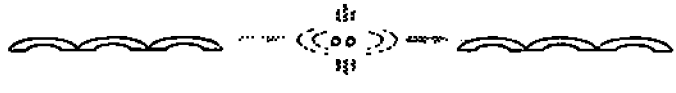

فقام عبادة وهمّ بالانصراف .

فقال المقوقس لمن حوله : " أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث ، وإن لم تجيبوا إليها وأنتم طائعين فتجيبون إليها وأنتم كارهين ". فقالوا : " وأى خصلة نجيبهم إليها "؟.

قال المقوقس : "أما دخولكم فى دينهم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليه ولا تصبروا صبرهم ، ولكن افعلوا الثالثة " .

قالوا : " أفنكون لهم عبيداً " ؟.

قال : نعم تكونوا عبيداً أنتم وأولادكم إلى أن تموتوا عن آخركم".

فلما رجع عبادة إلى عمرو بن العاص وأخبره ما قالوه القبط ، فأمر جيوشه بالقتال لهم والمحاصرة، فلما حاصروهم لم يطيقوا القبط ذلك ، وتسحبوا فى السفن إلى الروضة ، وحصنوا برها بالسفن من كل ناحية ، وأحدقوا [1] بهم المسلمون من كل جهة[2].

فلما رأى المقوقس ذلك قال للقبط : " ألم أعلمكم بهذه الأحوال قبل وقوعها فما تروا الآن " ؟

قالوا : " نذعن للجزية [3] ونعقد الصلح بيننا وبينهم ".

1- أحاطوا .

2- " لما دخل ابن العاص القصر تشتت الروم ثم اجتمعوا فى كوم شريك ، فسار إليهم وهزمهم ، واقتفى أثرهم حتى اجتمعوا بالإسكندرية فحاصرها حتى ملكها ٢١ ديسمبر سنة ٦٤١ ميلادية الموافقة ٢١ هجرية ، بعد أربعة عشر شهراً من حصارها ، وفر حزب من الروم إلى السفن ".(خلاصة تاريخ العرب ص ٨٠).

3 - الجزية يتم وضعها على الرؤوس ، واسمها مشتق من الجزاء ،ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبى ولا مجنون . انظر فى ذلك (الأحكام السلطانية ص ص ١٤٢- ١٤٤).

" وقد وجبت الجزية على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة بأنواعها على المسلمين ، حتى يتكافأ الفريقان ". (المدنية العربية الإسلامية ص ٧٥).

فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول له : "إنى لم أزل حريصاً على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت إلىَّ بها . فأبى ذلك علىَّ من حضرنى من القبط . والآن عرفوا نصحى لهم ورجعوا إلى قولى لهم بالنصح . فأعطنى منك أماناً . اجتمع أنا وأنت فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك . وإن وقع بيننا خلف رجعنا إلى ما كنا عليه ".

فلما سمع عمرو ذلك استشار أصحابه فى ذلك فقالوا : " لا تجبه إلى الصلح ولا الجزية . ونحاربه حتى يفتح الله علينا بالنصر عليهم ".

فقال لهم عمرو : " قد علمتم ما عهد إلىَّ به أمير المؤمنين بأن أجيب إلى خصلة من هذه الخصال الثلاث . وقد طال الأمر بيننا وبينهم ".

فعند ذلك اجتمع رأى الصحابة على أن يفرضوا على كل رأس من القبط دينارين . وليس على الشيخ الفانى . ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم . ولا على النساء شئ من الجزية . وعلى أن للمسلمين عليهم النزول والضيافة حيثما كانوا من القرى مقدار ثلاثة أيام . فإن أجابوا إلى ذلك عقدنا بيننا وبينهم الصلح .

فأرسل عمرو يقول للمقوقس :" قد وقع الرأى بيننا على أن تزنوا الجزية كما تقرر الحال عليه ".

قال ابن عبد الحكم : " كان عدد القبط يومئذ ثمانية آلاف ألف إنسان غير الروم ".

ثم إن المقوقس قال للروم :" من أحب منكم أن يقيم بأرض مصر فليزن الجزية . ومن أراد الخروج إلى أرض الروم فليخرج ولا جزية عليه ".

ثم إن المقوقس كتب كتاباً إلى ملك الروم يعلمه بذلك ، فكتب إليه ملك الروم: " قد أتاك من العرب إثنا عشر ألف إنسان، فعجزت عن قتالهم وبمصر ما لا يحصى عددهم من الروم فلا سبيل إلى هذا أبداً ".

فأرسل المقوقس يقول لعمرو بن العاص :" إن ملك الروم لم يوافق على أمر الصلح ولا الجزية ، ولم يكن نقض الصلح مني ".

ثم جاءت الأخبار بأن ملك الروم أرسل عسكراً عظيماً في البر والبحر، فلما سمع ذلك عمرو خرج إليهم بمن معه من العربان فتلاقوا بالكريون [1] .

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص على مقدمة الجيش، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو، فعند ذلك صلى عمرو صلاة الخوف ، وبرز للقتال وتلاقى مع عساكر الروم هناك[2] .

فلم تكن إلا ساعة وقد فتح الله تعالى على المسلمين بالنصر على عساكر الروم ، فقتل في ذلك اليوم من عساكر الروم ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الصحابة في ذلك اليوم إثنان وعشرون رجلاً .

فلما وقعت الكسرة على عساكر الروم توجهوا إلى ثغر الإسكندرية وحصونها [3] . وكان عليها يومئذ سبعة أسوار فلما تحصنوا الروم بالإسكندرية

1- " الكريون : مدينة قديمة زارها ابن حوقل وذكر عنها في كتابه أنها في أيامه مدينة عظيمة جميلة على ضفتي ترعة الإسكندرية ، وكان التجار يركبون منها القوارب إلى الفسطاط في وقت الصيف إذا علا النيل ، وكانت مدينة الكريون آخر حصن من سلسلة الحصون الممتدة للروم بين حصن بابليون والإسكندرية ، وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح ، وخطر كبير في الحرب إذ كانت تشرف على الترعة التي تعتمد عليها الإسكندرية في طعامها وشرابها . (فتوح مصر والمغرب ١٠٨/١ هامش ٣).

2 - " فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً ". (المرجع السابق ١/ ١٠٩).

3- " ذهبت العساكر الرومانية إلى الإسكندرية وتحصنت فيها لأنها هي التي بقيت في حكمهم وحدها ، وجميع الجهات المصرية بحرية وقبلية صارت في يد المسلمين" (الخطط التوفيقية لمدينة الإسكندرية ص ١٤).

أرسل هرقل إلى سائر أعماله من البلاد ، يستحثهم فى جمع العساكر وسرعة الحضور ، وقصد قتال عمرو وأصحابه ، فلما سمعوا الصحابة بذلك تقلقوا وضاق صدرهم .

ثم بعد أيام قلائل جاءت الأخبار بأن هرقل قد هلك[1] وكفى الله المؤمنين القتال .

فكان كما قيل فى المعنى :

تذكر صنع ربك كيف يأتى ... بما تهواه من فرج قريب

فلا تيأس إذا ما ناب خطب ... فكم فى الغيب من عجب عجيب

قال الليث بن سعد : مات هرقل سنة عشرين من الهجرة ، وكسر الله تعالى بموته شوكة الروم .

قال ابن لهيعة : إن مصر فتحت قبل فتح الإسكندرية بتسعة أشهر، وقد اختلف العلماء فى فتحها عنوة أو صلحاً .

قال ابن شهاب : فتحت مصر بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً .

وقال يزيد بن أبى حبيب : مصر كلها فتحت بالصلح إلا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة[2] .

---

1 - مات هرقل فى ١١ فبراير ٦٤١ م / ٢٠ هـ ، وبذلك كسرت بموته شوكة الروم ورهن أمرهم فرجع ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية ، وبوفاة هرقل تولى أبناء قسطنطين وهرقل الثانى ونصبت الإمبراطورة مارتينا أم ولده هرقل أو هرقلونس شريكة لهما فى الحكم ، فعملت هذه الإمبراطورة على إنهاء الحرب لانشغالها وسلطة الروم بالفتن الداخلية التى قامت من أجل النزاع على العرش . (غارات أوربا على الشواطئ المصرية ص ٨).
" ولذا عقد بطريق الإسكندرية معاهدة مع العرب فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م ، انتقلت بمقتضاها إلى أيدى العرب ".
(الحضارة العربية ص ٦١).

2- قال خليفة بن خياط : مصر كلها صلح فى قول يزد بن أبى حبيب غير الإسكندرية ، وبهذا القول كان يقول الليث .
(تاريخ خليفة بن خياط ص ١٤٤)

قال ابن عبد الحكم : لما أبطأ خبر الفتح على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كتب إلى عمرو بن العاص كتاباً يقول فيه : " أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن خبر الفتح منذ سنتين . وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن مصر ستفتح على أيديكم . وما ذاك إلا ما أحدثتم وأحببتم من الدنيا في قلوبكم . وأن الله تعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم[1] . فإذا أتاك كتابي فأخطب بالناس وحضهم على القتال . ورغبهم في الصبر وأن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد . وليكن ذلك عند الزوال من يوم الجمعة . فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة ".

فلما أتى كتاب عمر إلى عمرو . قرأه على المسلمين . ثم صلى ركعتين وسأل الله تعالى النصر على الأعداء .

وكان عمرو لما أتاه كتاب أمير المؤمنين عمر . كان على الإسكندرية يحاصرها . فلما قرأ كتاب أمير المؤمنين توجه إلى القتال . وكان ذلك في يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة . فبرزوا للقتال كصدمة رجل واحد . فانتصروا على الروم الذين هناك من عساكر هرقل[1] .

---

1 - زاد ابن عبد الحكم في روايته عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ".. وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، واعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكون غيّرهم ما غيّر غيرهم .. ". ثم أكمل نص الكتاب الذي نقله ابن إياس هنا في النص انظر (فتوح مصر والمغرب ١/ ١١٦).
أما الأربعة الذين ذكرهم ابن عبد الحكم ، فإنه لما أبطأ عمر بن الخطاب ﷺ خبر فتح الحصن ، أمد عمرو بن العاص بأربعة آلاف رجل ، وقال عمر : إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل رجل منهم مقام الألف ، الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد – وقال آخرون بل خارجة بن حذافة الرابع ، لا يعدون مسلمة. انظر في ذلك (المرجع السابق ١/ ٩١).

2 - قال ابن عبد الحكم ، وقال : إن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد ، كما حدثنا عثمان بن صالح عمن حدثه قال : أشر عليّ في قتال هؤلاء ، فقال له مسلمة : أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس ، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك، قال عمرو : ومن ذلك ؟ قال : عبادة بن الصامت ، قال: فدعا عمرو عبادة ، فأتاه وهو راكب على فرسه ، فلما دنا منه أراد النزول ، فقال له عمرو :عزمت عليك إن نزلت ناولني سنان رمحك ، فناوله إياه ، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له ووالاه فقال الروم ، وقاتلهم ، فتح الله على يديه الإسكندرية من يوم ذلك . (المرجع السابق ١/ ١١٦- ١١٧).

قال ابن لهيعة : استشهد في فتح الإسكندرية برقا بن الأسود ، وكان من مشاهير الصحابة[1].

فلما فتحت الإسكندرية وكانت يومئذ دار المملكة ، هرب الروم الذين كانوا بها ، وتسحبوا في المراكب الكبار ، وحملوا ما قدروا عليه من الأموال ومن الأمتعة ، وتوجهوا إلى نحو بلاد الروم ، وتأخر منهم جماعة بالإسكندرية[2] .

قال ابن عبد الحكم : أحصى من بقي بالإسكندرية من عساكر الروم غير من تسحب منهم فكانوا نحو ستمائة ألف إنسان غير الصبيان وغير النساء ، فأفرضت عليهم الجزية على كل رأس دينارين ، وكان بها أربعون ألف يهودي فرضت عليهم الجزية.

قال ابن عبد الحكم : لما فتحت مصر والإسكندرية فأرسل عمرو بن العاص يبشر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فتوجه بهذه البشارة معاوية بن خديج[3] فسار حتى دخل المدينة الشريفة وقت الظهر. فلما أخبر أمير المؤمنين بذلك ، فنادى بالصلاة جامعة فتسامعت الصحابة بذلك وأتوا أفواجاً . فلما تكاملوا خرج أمير المؤمنين عمر وصلى بهم ركعتين شكراً لله تعالى على ذلك، ثم صلى بهم صلاة الغيبة

---

1 - برقا بن الأسود بن عبد شمس القضاعي، شهد فتح مصر ، وقيل : قتل يوم فتح الإسكندرية ، قاله ابن يونس ، وقال : له صحبة. (الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٤٢٣).

2 - " قيل إنه ترحل من الإسكندرية في الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو مبعون ألف يهودي ، وكان عدة من كان بالإسكندرية من الروم ثمانين ألفا من الرجال ، فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن ، وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار، فسار فيها ثلاثون ألفا ، حملوا فيها ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل". (المغرب في حلى المغرب ص ٣٧). وأورد ابن عبد الحكم عن محمد بن سعيد الهاشمي:" ترحل من الإسكندرية ، سبعون ألف يهودي ".(فتوح مصر والمغرب ١/ ١٢١).

3- معاوية بن خديج : توفي سنة اثنين وخمسين قال ابن كثير في ترجمته : " شهد فتح مصر ، وهو الذي وفد إلى عمر بفتح الإسكندرية ، وشهد مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح قتال البربر ، وذهبت عينه يومئذ وولي حروبا كثيرة في بلاد المغرب ، ثم نزل بمصر حتى مات بها في هذه السنة ". (البداية والنهاية ٥٨/٨).
قال الذهبي " شهد اليرموك . ذهبت عينه في غزوة تبوك " (تاريخ الإسلام ٣٧٦/٢).

على من استشهد فى هذا الفتح من الصحابة، وكان فتح الإسكندرية عنوة بغير عهد ولا صلح .

وكان معنى كتاب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: " أما بعد فإنى فتحت مدينة الإسكندرية ، وهى مدينة لا أقدر أن أصف لك ما فيها ، وهى ثلاث مدائن بعضها فوق بعض تختطف بالأبصار من شدة بياض حيطانها ، وفيها من الأعمدة الرخام ما لا يحصى عددهم .

وبها منار فى وسط البحر طوله نحو أربعمائة ذراع ، وفى أعلاه مرآه مسلطة على بلاد الفرنج ، ينظر الرائى فيها ما يحدث فى بلاد الفرنج ، ومن يقصد المدينة من العدو فى المراكب فيخبر بذلك أهل المدينة قبل وصول المراكب إليها بأيام فيستعدوا لذلك ، وهذا المنار من جملة عجائب الدنيا ليس فى سائر الدنيا أعجوبة تشاكله.

وبها عمود يقال له عمود السوارى ارتفاعه سبعون ذراعاً وقطره خمسة أذرع وله قاعدتان طول كل واحدة اثنا عشر ذراعاً ، ووجدت بالمدينة أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون وفى كل دار منها حمام تختص بها، ووجدت بها أربعمائة ملهى برسم الملوك ، ووجدت بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر من بعد العصر إلى العشاء .

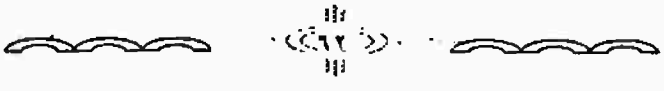

ووجدت بها مائة ألف مركب من مراكب الروم الكبار ، ووجدت بها أربعين ألف يهودى وجبت عليهم الجزية[1]، ومن الروم والقبط ستمائة ألف إنسان سوى النساء والصبيان، ووجدت على هذه المدينة ثلاثة أسوار مانعة ، فأعان الله تعالى وفتحت هذه المدينة على أيدى المسلمين" .

---

1 - قال ابن لهيعة : جبى عمرو بن العاص جزية الإسكندرية ستمائة ألف دينار لأنه وجد ثلاثمائة ألف من أهل الذمة، فضرب على كل رأس دينارين دينارين ، وفرض على قبط مصر البالغين سوى الشيخ الفانى دينارين دينارين فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف رجل .(فضائل مصر وأخبارها ص ٨٩).

ويشكك بتلر فى العدد المذكور بقوله :" نرى أن هذه الأعداد فيها مبالغة ، ومع ذلك فإنها تدل دلالة واضحة على ما كان للمدينة من الأثر العظيم فى نفوس الفاتحين ". (فتح العرب لمصر ص ٣١٩).

" إذا كانت مصر كلها بعد فتح العرب لها تدفع للفاتحين جزية عن الرأس بدينارين ، وخراج يقدر بما يتوسع فيه الفرد من الأرض والزرع ، فإن أهل الإسكندرية كانوا يؤدون الخراج والجزية " على قدر ما يرى وليهم " لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة ".(غلوات أورنا على الشواطئ المصرية ص ١٠).

ولاية عمرو بن العاص على مصر

فلما جرى ذلك أرسل أمير المؤمنين عمر إلى عمرو بن العاص تقليداً بولاية مصر على يدى معاوية بن خديج ، فكان عمرو بن العاص أول من تولى على مصر فى مبتدأ الإسلام [1] وهو أول أمرائها .

ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كتب إلى عمرو بن العاص كتاباً يقول له فيه : " من كان من القبط والروم فى أيديكم فخيروه بين الإسلام ودينه ، فإن أسلم فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، وإن اختار دينه فأبقوه على دينه وقرروا عليه فى كل سنة دينارين ".

قال ابن عبد الحكم : لما فتح عمرو بن العاص الحصن وهو المسمى الآن قصر الشمع فكان فسطاطه [2] قبالة الحصن، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية أمر بنزع الفسطاط من ذلك المكان ، فلما أرادوا ذلك وجدوا عليه عش يمامة قد باضت به وأفرخت فقال عمرو : " أتركوا الفسطاط على حاله احتراماً لليمامة التى عششت عليه ".

1- تولى عمرو بن العاص على مصر مرتين، وهذه هى المرة الأولى وظل بها أربع سنوات، أما الثانية فكانت زمن معاوية بن أبى سفيان فى سنة ثمان وثلاثين .

2- الفسطاط : بيت من الشعر والجمع فساطيط والفسطاط بالوجهين أيضا مدينة مصر قديما ، وبعضهم يقول كل مدينة جامعة فسطاط. (المصباح المنير ٦٤٧/٢).

وقال الإصطخرى فى وصفها:" الفسطاط على غاية العمارة والخصب ، وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب إليهم محالها ، ومعظم بنائهم بالطوب طبقات، وأكثر المنازل بها غير مسكونة ، وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى طبقات ".(المسالك والممالك ص ٣٩).

" كانت من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل ، فضلاً عن توسطها بين الوجهين القبلى والبحرى ، وكان يخرج منها قوافل تجارية إلى الحجاز وبلاد الشام والمغرب ، لذلك كانت أسواق الفسطاط عامرة بالبضائع والمنتجات على اختلاف أنواعها ". (المدنية العربية الإسلامية ص ٧٤).

فلما فتح الإسكندرية وأراد التوجه إلى الحصن[1] فقالوا له: " أين ينزل العسكر " ؟

قال : " مكان الفسطاط " . يعنى الخيمة التى تركها هناك . فلما بنى هناك المدينة فسميت بمدينة الفسطاط بسبب ذلك .

قال ابن عبد الحكم : لما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية شرع فى بناء مدينة تجاه قصر الشمع ، وكان هذا الموضع يعرف بدار الحصا فأنشأ هناك دار يحكم فيها بين الناس وسماها مدينة الفسطاط ، فصارت دار المملكة وهى أول مدينة بنيت فى الإسلام، وصارت تتزايد فى العمارة من مبتدأ الإسلام إلى أن أنشأ المعز القاهرة ، فتلاشى أمر مدينة الفسطاط .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : أول مدينة عرف اسمها بأرض مصر مدينة أمسوس ، وكانت غربى الأهرام يسكنها ملوك الجبابرة ، فلما جاء الطوفان محا رسمها ونسى اسمها ، ثم بعد الطوفان بنيت مدينة منف ، وصارت دار المملكة يسكنها الفراعنة ، وآخر من سكنها من الفراعنة فرعون موسى عليه السلام إلى أن خربها بخت نصر، ثم صارت دار المملكة الإسكندرية ، وسكن بها القبط وآخر من سكنها من القبط جريج المعروف بالمقوقس ، وكان يصيف بمصر ويشتى بالإسكندرية، فلما جاءت دولة الإسلام وفتحت مصر فأنشأ عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط

1- قال ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب ، أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبنائها مفروغاً منها هَمَّ أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟. قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إذا جرى النيل ، فكتب عمر إلى عمرو إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط . (فتوح مصر والمغرب ١/١٣٢-١٣٣).

وصارت دار المملكة إلى أن جاء الأمير أحمد بن طولون ، فأنشأ مدينة وسماها القطائع وصارت دار المملكة ، إلى أن جاء جوهر القائد من الغرب وأنشأ للمعز القاهرة فصارت دار المملكة ، فلما زالت دولة الفاطميين وجاءت دولة الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فبنى قلعة الجبل وبنى سور القاهرة ، فصارت قلعة الجبل دار المملكة بمصر إلى يومنا هذا[1].

قال العقيلي في مدينة الفسطاط :

أحن إلى الفسطاط شوقاً وإنني ... لأدعولها أن لا يخل بها القطر

وهل في الحيا من حاجة لجنابها ... وفي كل قطر من جوانبها نهر

تبدت عروساً والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد بها انتظم الدرّ

قال ابن عبد الحكم : لما استقر عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط استقضى قاضياً يحكم بين الناس فكان أول قاض قضى بمصر في الإسلام ، عثمان بن قيس ابن أبي العاص السهمي[2] تولى بإذن عمر بن الخطاب ﷺ .

1- أي إلى أيام ابن إياس .

2 - عثمان بن قيس : قال ابن حجر في " رفع الإصر عن قضاة مصر " : ومات عمر بن الخطاب ، فأقره عثمان على القضاء طوال خلافته ، وكان فصيحاً عالماً مجتهداً غزير الدمعة ، يقضي وهو يبكي، ويقول ويل لمن حكم فجار .

سنة إحدى وعشرين من الهجرة

فيها أرسل عمرو بن العاص المقداد بن الأسود ﷺ إلى مدينة دمياط فحاصر أهلها بمن معه من العساكر حتى فتحها[1] . وكان بها شخص من القبط يقال له الهاموك - وكان خال المقوقس- وكان لا هاموك ولد يسمى شطا، فأسلم وأتى إلى المقداد بن الأسود ودله على مكان دخل منه إلى المدينة حتى ملكها . ومات شطا فى المعركة ليلة النصف من شعبان سنة إحدى وعشرين ودفن خارج دمياط[2] .

أخبار المقوقس بعد فتح الإسكندرية

قال ابن لهيعة : لما فتحت الإسكندرية كان المقوقس بها فأرسل يطلب الأمان من عمرو ، فأرسل له أماناً وصار المقوقس يزن الجزية عنه وعن أولاده وعياله ، وحضر مجالس عمرو بن العاص فقال له عمرو يوماً : " يا مقوقس لقد وليت على مصر إحدى وثلاثين سنة ، فأخبرنى بما يكون فيه عمارة أراضى مصر " .

---

1 - أورد البلاذرى عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن الجيشانى قال : سمعت جماعة ممن شهد فتح مصر يخبرون أن عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد الله بن حذافة السهمى إلى عين شمس فغلب على أرضها ، وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط ، ووجه خارجة بن حذافة العدوى إلى الفيوم والأشمونين وأخميم والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك ، ووجه عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونه ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير ففعل مثل ذلك ، ووجه عقبة بن عامر الجهنى - يقال : وردان مولاه صاحب سوق وردان بمصر - إلى سائر أسفل الأرض ، ففعل مثل ذلك ، فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر ، فصارت أرضها أرض خراج . (فتوح البلدان ص ص ٢٣٩-٢٤٠).

2 - شطا بن الهاموك : تقدم الحديث عنه فى" أعمال البلاد المصرية وكورها فى الحديث عن دمياط ص ٣٠. وانظر ايضا (الخطط المقريزية ١/ ٢٢٦)

فقال له المقوقس :" إنى رأيت الذى يقوم بعمارة أراضى مصر حفر خلجانها ، وإصلاح جسورها ، وسد ترعها ، ولا يؤخذ خراجها إلا من غلالها ، ويحجر على عمالها من المطل ، ويمنعهم من أخذ الرشاء ، وترفع عن أهلها المعاون والهدايا ، ليكون ذلك قوة للمزارعين على وزن الخراج[1]".

قال ابن عساكر فى تاريخه عن سفيان بن وهب الخولانى قال : بينما نحن نسير فى فضاء مصر مع عمرو بن العاص وكان المقوقس راكباً معه ، فالتفت إليه عمرو ، وقال له : " يا مقوقس ما بال جبلكم أقرع ، ليس به نبات ولا شجر كجبال الشام " ؟.

فقال المقوقس :" ما أدرى ، ولكن أغنى الله تعالى أهل مصر بهذا النيل بما يزرعون عليه ، ولكنا نجد فى كتبنا ما هو خير من ذلك " . قال : " ما هو " ؟

قال : " ليدفن تحته قوم يبعثهم الله تعالى يوم القيامة لا حساب عليهم " .

فقال عمرو : " اللهم اجعلنى منهم " .

---

1 - الخراج : هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها ، والخراج فى لغة العرب اسم للكراء والغلة . (الأحكام السلطانية ص ١٤٦).

" كان الخراج يقدر على حسب مساحة الأرض الزراعية ومدى جودتها وغلتها ونوعية المحصول ، وقد أمر عمر بن الخطاب بألا يكلف أهل الخراج فوق طاقتهم ، وكان الخراج يؤدى إما نقداً وإما حصة من المحصول الزراعى، ويشرف على تنظيم جباية الخراج " ديوان الخراج " وعلى صاحب هذا الديوان تحديد مقدار الخراج على كل مزارع وإعفاء من يستحق الإعفاء ، وكان الخلفاء يختارون شخصاً له دراية كاملة بأمور الأرض والزراعة والرى والتجارة ".(المدنية العربية الإسلامية ص ٧٧).

قال ابن لهيعة : قُبِرَ تحت جبل المقطم من أعيان الصحابة خمسة ، وهم : عقبة بن عامر الجهنى ، وعبد الله بن حذافة السهمى ، وعبد الله بن الحارث الزبيدى ، وأبو بصرة الغفارى وعمرو بن العاص ﷺ أجمعين [1] .

قال ابن عبد الحكم : واستمر المقوقس مقيماً بالكنيسة المعلقة حتى هلك فى أيام عمرو بن العاص ، وكان عمرو يكرمه ويقبل شفاعته فى الأقباط ، وكان المقوقس يحضر إلى عمرو إذا كانت له حاجة فيقضيها له .

1- أ- عقبة بن عامر الجهنى : ذكره الذهبى فى وفيات سنة ثمان وخمسين ، " صحابى مشهور ولى إمرة مصر لمعاوية ، وليها بعد عتبة بن أبى سفيان ، ثم عزله معاوية وأغزاه البحر فى سنة سبع وأربعين ".(تاريخ الإسلام ٣٦٥/٢).

ب – عبد الله بن حذافة السهمى : توفى فى خلافة عثمان بن عفان ﷺ ، ذكر ذلك ابن الأثير فى " أسد الغابة ".

وذكره الذهبى " أبو حذافة من المهاجرين الأولين هاجر مع أخيه قيس إلى الحبشة ، وكان رسول الله ﷺ بعثه إلى كسرى ، وقد أسره الروم زمن عمر ، فأرادوه على الكفر فأبى عليهم ، فقال له ملكهم : قبل رأسى حتى اطلقك ومن معك ، ففعل فأطلقه وثمانين أسيراً ، فلما قدم قال له عمر : حق على كل مسلم أن يقبل رأسك ، وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه" .(تاريخ الإسلام ١٣٨/٢- ١٣٩).

جـ- عبد الله بن الحارث : توفى فى أيام معاوية فى آخرها. (المرجع السابق ٣٦٢/٢).

د- أبو بصرة الغفارى : ذكره الذهبى باسم حُميل بن بصرة ، شهد فتح مصر وسكنها وبها توفى.(المرجع السابق ٣٨٨/٢).

هـ- عمرو بن العاص : " أسلم فى المدينة وهاجر واستعمله رسول الله ﷺ على جيش غزوة ذات السلاسل وفيه أبو بكر وعمر لخبرته بمكيدة الحرب ، ثم ولى الإمرة فى غزوة الشام لأبى بكر وعمر ، ثم افتتح مصر ووليها لعمر .

قال ابن عبد البر : أسلم عمرو بن العاص فى صفر سنة ثمان ، وأمره النبى ﷺ على سرية نحو الشام فى جمادى الآخرة سنة ثمان فيما ذكره الواقدى إلى السلاسل ، ثم أمده النبى ﷺ بمائتى فارس فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى أن قال . ثم ولى مصر لمعاوية ومات بها يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين على الأصح ، فصلى ابنه عليه ثم رجع فصلى الناس صلاة العيد ، ثم ولى مصر بعده عتبة أخو معاوية فبقى سنة ومات فولى مصر مسلمة بن مخلد . (المرجع السابق ٢٩٦/٢).

سنة اثنين وعشرين من الهجرة

فيها شرع عمرو بن العاص فى بناء جامعة الكبير الذى بالقرب من قصر الشمع بمصر العتيقة.

قال الليث بن سعد:" لما فرغ عمرو بن العاص من بناء مدينة الفسطاط شرع فى بناء الجامع المعروف به [1] ، وهو أول جامع بنى فى الإسلام بمصر، وكان مكان أرضه أشجار وبساتين فمحا ذلك وبنى هذا الجامع .

قال ابن فضل الله فى " المسالك " : لما وضع عمرو قبلة هذا الجامع كان واقفاً عليه نحو ثمانين رجلاً من الصحابة [2] ، فلما اتخذ المنبر جعله عالياً فكتب إليه عمر ابن الخطاب ﷺ : "بلغنى أنك قد اتخذت منبراً عالياً ترقى به على رقاب المسلمين فعزمت عليك ألا ما كسرته "[3].

قال ابن عبد الحكم : لما بنى عمرو هذا الجامع جعل إلى جانبه داراً وسماها دار أمير المؤمنين .

1- جامع عمرو بن العاص : يقال له تاج الجوامع، وهو أول مسجد أسس ديار مصر فى الملة الإسلامية بعد الفتح . (الخطط المقريزية ٤/٢٤٦).

2- قال الكندى ، قال يزيد بن أبى حبيب سمعت أشياخنا ممن حضر مسجد الفتح يقولون : وقف على إقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم الزبير بن العوام ، والمقداد ، وعبادة بن الصامت ، وفضالة بن عبيد ، وعقبة بن عامر ﷺ . (الخطط المقريزية ٤/٢٤٦- ٢٤٧).

3 - قال ابن عبد الحكم :" حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن الليث بن سعد ، أن عمرو بنى المسجد ، وكان ما حوله حدائق وأعنابا ، فصبوا الحبال حتى استقام لهم ، ووضعوا أيديهم ، فلم يزل عمرو قائماً حتى وضعوا القبلة ، وأن عمرا وأصحاب رسول الله ﷺ الذين وضعوها ، واتخذ فيه منبرا ، فكتب إليه عمر بن الخطاب ، أما بعد ، فإنه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على المسلمين ، أو ما يحسبك أن تقوم قائماً ، والمسلمون تحت عقبك ، فعزمت عليك لما كسرته ". (فتوح مصر والمغرب ١/ ١٣٣ – ١٣٤).

فلما بلغ أمير المؤمنين ذلك كتب إلى عمرو وهو يقول له : " بلغنى أنك بنيت لى دار، وإنى لرجل بالحجاز ، أفيكون لى دار بمصر ، فعزمت عليك بالله ألا ما جعلتها سوقاً للمسلمين"، فامتثل عمرو ذلك وجعلها سوقاً[1].

قال ابن عبد الحكم : لما ولى مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر زاد فى بناء هذا الجامع وبنى به المنار، فلما ولى عبد العزيز بن مروان هدم هذا الجامع ووسعه ، فلما ولى قرة بن شريك العبسى هدمه وبناه وزخرفه وذهب رؤوس العمد التى به ، وجعل فيه محراباً مجوفاً ، وهو أول من أحدث المحراب المجوف ، فلما ولى عبد الله ابن طاهر زاد فى عرضه بإذن المأمون وأدخل فيه الدور التى حوله[2] .

فلما كان أيام خمارويه بن أحمد بن طولون احترق هذا الجامع كله ، وذلك سنة خمس وسبعين ومائتين ، فاستمر على ذلك إلى أيام الفاطميين فبناه الحاكم بأمر الله ، ولما قدم الإمام الشافعى إلى مصر جلس فيه لتدريس العلم وفى الجملة إنه جامع مبارك لا يخلو من ولى صالح قط .

---

1 - قال ابن لهيعة : هى دار البركة ، فجعلت سوقا .(فتوح مصر والمغرب ١/ ١٣٤).

2 - انظر ما ألحق بالمسجد من زيادات وتوسعات من أيام ولاية مسلمة بن مخلد، ومن تبعه من الأمراء. (الخطط المقريزية ٤/ ٢٤٦وبعدها).

سنة ثلاث وعشرين

فيها جاءت جماعة من الأقباط إلى عمرو بن العاص وقالوا له: " أيها الأمير إن لنيلنا سُنة فى كل سنة لا يجرى إلا بها ". فقال لهم :" وما هى " ؟.

قالوا :" إذا كان إثنتا عشرة ليلة تخلو من بؤونة -من الشهور القبطية- عمدنا إلى جارية بكر وأخذناها من أبويها غصباً ، وجعلنا عليها الحلىّ والحلل ، ثم نلقيها فى بحر النيل فى مكان معلوم عندنا ".

فلما سمع عمرو بذلك قال :" هذا لا يكون فى الإسلام أبداً "، فأقاموا أهل مصر بؤونة وأبيب ومسرى وتوت لم يجر فيها النيل لا كثيراً ولا قليلاً ، فلما عاينوا أهل مصر ذلك هموا الخلاء منها ، فلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب كتاباً وأرسله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، فلما وصل إليه وعلم ما فيه كتب بطاقة ، وأرسلها إلى عمرو بن العاص وأمره أن يلقيها فى بحر النيل ، فلما وصلت إليه البطاقة فتحها وقرأ ما فيها فإذا فيها مكتوب : "

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب إلى نيل مصر ، أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك "[1].

1- عن قصة هذه البطاقة انظر (البداية والنهاية ٩٥/٧) .
ويروى أنه وقع مثل ذلك فى زمن موسى ﷺ ، وهو أن موسى ﷺ دعا على آل فرعون ، فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء ، فرغبوا إلى موسى ، فدعا لهم بإجراء النيل رجاء أن يؤمنوا ، فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا.(صبح الأعشى ٢٩٥/٣) .

فلما وقف عمرو على البطاقة ألقاها فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد ، وعيد الصليب[1] سابع عشر توت، فأجرى الله تعالى النيل فى تلك الليلة ستة عشر ذراعاً فى دفعة واحدة ، وقد تهيأ أهل مصر للخلاء منها ، لأن النيل هو عمارة مصر، فلما عاينوا أهل مصر ذلك فرحوا بإبطال تلك السُنة السيئة عنهم ، وذلك ببركة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ .

وفيها- أعنى سنة ثلاث وعشرين- توفى أبو مالك الأشعرى واسمه كعب بن عاصم[2] شهد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة ﷺ .

وفيها توجه عمرو بن العاص إلى المدينة الشريفة ليزور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فزاره ورجع إلى مدينة الفسطاط .

1- انظر أعياد أخرى كالغطاس والنيروز ..(صبح الأعشى ٢/٤١٥- ٤٢٥).

2- أبو مالك الأشعرى : ذكره الذهبى فى وفيات سنة ثمانى عشرة " اسمه كعب بن عاصم ، وقيل عمرو ، وقيل عامر بن الحارث ، توفى فى خلافة عمر ". (تاريخ الإسلام ٢/٧٦).

سنة أربع وعشرين

فيها جاءت الأخبار بوفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[1]- رحمه الله عليه - فحزن عليه عمرو بن العاص حزناً شديداً وجلس للعزاء ، عاش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنوات .

سنة خمس وعشرين

فيها عزل الإمام عثمان بن عفان ﷺ عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وولى عبد الله بن أبى سرح على مصر ، فكانت مدة ولاية عمرو بن العاص على مصر هذه المرة نحو ست سنين إلا شهراً وسيعود إلى ولايته بمصر ثانياً .

وهو أول من جبى خراج مصر فى الإسلام ، وقد بلغ خراج مصر فى أيامه اثنى عشر ألف ألف دينار[2] .

1- عمر بن الخطاب ﷺ :عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : ولدت قبل الفجار الأعظم الآخر بأربع سنين ، وأسلمت وأنا ابن ست وعشرين سنة . (مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص ٤).
استشهد فى أواخر ذى الحجة "سنة ثلاث وعشرين " ، وأسلم فى السنة السادسة من النبوة ، وله سبع وعشرون سنة ، عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : " اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ". (تاريخ الإسلام ٢/٩٩).
قال الواقدى: عن ابن المسيب قال : أسلم عمر بعد أربعين رجلاً و عشر نسوة ، فلما أسلم ظهر الإسلام بمكة ". (المرجع السابق ١/٨٠) .
" كانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر واحدى وعشرين ليلة ". (مناقب أمير المؤمنين ص ٢٥٥).
تولى الخلافة بعد وفاة الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ ، وفى عهده انتشر الإسلام بعدما فتحت بلاد كثيرة ، وكان عصره من أزهى العصور فى تاريخ الإسلام بعدله وحزمه.
2 - بلغ خراج مصر فى أول سنة فتحها عمرو بن العاص " عشرة آلاف ألف دينار ، وكتب إليه عمر بن الخطاب يعجز رأيه ويقول : جبيت للروم عشرين ألف دينار، فلما كان العام المقبل جباها اثنى عشر ألف ألف دينار ، فلما عزل عثمان عمراً منها وولى عبد الله بن أبى سرح ، زاد على القبط فى الخراج والمؤن ، فبلغت أربعة عشر ألف ألف دينار، فقال عثمان لعمرو: درت اللقحة، فقال عمرو: وأصررتم بالفصيل ".(فضائل مصر المحروسة ص ٣٦).

ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح

قيل كان اسمه حسام وقيل عويف . قال الكندى : كان عبد الله هذا أخا الإمام عثمان بن عفان من الرضاع ، وكان من جملة كتبة الوحى.

أسلم قديماً ثم افتتن ، وخرج من المدينة إلى مكة ، فارتد إلى دينه، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ، فأهدر دمه.

فجاء عثمان بن عفان إلى النبى ﷺ وقال : " إنه أخى من الرضاع " فاستأمن له ، فأمنه رسول الله ﷺ وسأل له المبايعة ثانياً ، فبايعه رسول الله ﷺ ثانياً ، وقال: " الإسلام يهدم ما كان قبله".

فلما ولى الإمام عثمان الخلافة ، ولى عبد الله بن أبى سرح على مصر.

فلما ولى أظهر له نتيجة فى خراج مصر وأورد أربعة عشر ألف ألف دينار ، فقال عثمان بن عفان ﷺ لعمرو بن العاص: " درت اللقحة بعدك يا أبا عبد الله بأكثر من درها الأول ".

فقال عمرو : " نعم ولكن أجاعت أولادها " .

وإن هذه الزيارة التى أخذها عبد الله بن أبى سرح ، إنما هى على الجماجم ، فإنه أخذ على كل رأس ديناراً خارجاً عن الخراج ، فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل ، وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر فى مبتدأ الإسلام.

وفى أيامه توفى قاضى مصر عثمان بن قيس بن أبى العاص[1].

---

1 - عثمان بن قيس : تقدمت ترجمته ص ٦٦

فولى بعده بمصر القاضي أبو خزيمة ، واستمر قاضياً بمصر حتى توفى سنة أربع وخمسين من الهجرة .

وفى أيامه توفى المقداد بن الأسود ﷺ وليس الأسود أباه وإنما تبناه الأسود ابن عبد يغوث وهو صغير فعُرف به ، واسم أبيه عمرو بن ثعلبة الكندى ، وكان المقداد ممن شهد فتح مصر وفتح دمياط ، ثم توجه إلى المدينة الشريفة ، فمات بها سنة ثلاث وثلاثين رحمة الله عليه[1] .

وفى أيامه سنة ثلاثين توفى حاطب بن أبى بلتعة[2] دخل مصر رسولاً إلى المقوقس ، وعاش خمس وستين سنة . وكان من مشاهير الصحابة .

وتوفى فى أيامه من الصحابة أيضاً شرحبيل بن حبيب، شهد فتح مصر ومات سنة ثمان وعشرين ، وكان اسم أبيه مطاع الكندى وتوفى بالشام[3] .

---

1 - المقداد بن الأسود . تقدمت ترجمته ص ٥٢ .

2- حاطب بن ابى بلتعة : ذكره ابن كثير فى وفيات سنة ثلاثين من الهجرة : " حاطب بن أبى بلتعة بن عمرو بن عمير اللخمى حليف بنى أسد بن عبد العزى ، شهد بدراً وما بعدها ، وهو الذى كان كتب إلى المشركين يطمهم بغزو رسول الله ﷺ على فتح مكة ، فعذره رسول الله ﷺ بما اعتذر به ثم بعثه بعد ذلك برسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية " . (البداية والنهاية ١٤٧/٧ - ١٤٨).

" من مشاهير المهاجرين شهد بدراً والمشاهد ، وكان تاجراً فى الطعام ، له عبيد وكان من الرماة الموصوفين ، مات سنة ثلاثين " . (سير أعلام النبلاء ٤٣/٢ - ٤٥)

3- شرحبيل بن حبيب : أورده ابن الأثير فى " أسد الغابة " ، زوج الشفاء بنت عبد الله ، له ذكر فى حديث رواه الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن الشفاء بنت عبد الله.

ولم يذكر ابن الأثير نسب شرحبيل بن حبيب إلى مطاع الكندى ، أو سنة وفاته . أما الذى ينتمى إلى مطاع الكندي فهو شرحبيل بن حسنة وقد أورده ابن سعد فى "الطبقات " و الذهبى فى " تاريخ الإسلام " وابن الأثير فى " أسد الغابة " وابن كثير فى " البداية والنهاية " باسم شرحبيل بن حسَنَة فى وفيات سنة ثمانى عشرة من الهجرة " كان أحد الأمراء الأربعة الذين أمرهم أبو بكر الصديق".(تاريخ الإسلام ٧٥/٢).

" مات فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة ... ". (المعارف لابن قتيبة ص ٣٢٥) .

قال ابن كثير : أحد أمراء الأرباع وهو أمير فلسطين وهو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن قطن الكندى حليف بنى زهرة وحسنة أمه نسب إليها وغلب عليه ذلك ، أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة وجهزه الصديق إلى الشام ، فكان أميراً على ربع الجيش وكذلك فى الدولة العمرية، وطعن هو وأبو عبيدة وأبو مالك الأشعرى فى يوم واحد سنة ثمانى عشرة " (البداية والنهاية ٨٩/٧). وانظر (الطبقات الكبير ٤/ ١١٩).

ذات الصوارى

ومن الحوادث فى أيام عبد الله بن أبى سرح ، قال ابن لهيعة: لما كانت سنة خمس وثلاثين مشت الروم إلى قسطنطين بن هرقل ، وقالوا له :"أتترك الإسكندرية فى أيدى العرب وهى مدينتنا الكبرى " ، فجمع قسطنطين العساكر وأشحن منهم ألف مركب [1]. وقصد التوجه إلى الإسكندرية فبينما هو فى وسط البحر بعث الله تعالى عليهم ريحاً عاصفاً فغرق تلك المراكب عن آخرهم[2] .

وأما قسطنطين بن هرقل فإن الريح ألقته بصقلية فسألوه أهلها عن أمره فأخبرهم بأمر الريح وتغريق المراكب بالجيوش فقالوا له أهل صقلية :" أفنيت النصرانية وأغرقت رجالها فلو أن العرب دخلت علينا لم نجد من يردهم ، ثم إنهم قتلوا قسطنطين وكفى الله المؤمنين القتال .

كما قيل فى المعنى :

إن عقل الفرنج عقل خفيف ... حيث راموا قتالنا والنزالا

أخذوا بغتة بغير قتال ... وكفى الله المؤمنين القتالا

---

1 - أورد ابن عبد الحكم من حديث الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبى حبيب قوله : ومراكب المسلمين يومئذ مائتا مركب ونيف ، فقال لهم عبد الله بن سعد : أشيروا علىّ ، وعادها ثلاث مرات ، ثم قام رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال : أيها الأمير ، إن الله جل ثناؤه يقول:﴿..كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ سورة البقرة ٢٤٩ .
فقال عبد الله : اركبوا باسم الله ، فركبوا ، وإنما فى كل مركب نصف شحنته. انظر (فتوح مصر والمغرب ١/ ٢٥٦).

2- " صار فى أيام غالبة من الروم ، فبعث الله عليهم ريحاً ، فغرقتهم إلا قسطنطين نجا بمركبه فألقته الريح بصقلية .. " انظر (المرجع السابق ١/ ٢٥٥ – ٢٥٨).
" هزم الله الروم، وإنما سميت غزوة ذات الصوارى لكثرة صوارى المركب". (الخطط المقريزية ٢/٢٢٩) .